

إشكالية الحب الإلهي في التصوف الإسلامي ابن عربي كنموذج

The problematic of divine love in islamic mysticism IBN ARABI

AS A MODEL

جامعة باتنة 1_ (الجزائر)

فلسفة

BENACER HANA * بن ناصر هناء

hana.benacer@univ-batna.dz

تاريخ النشر: 2025-05-17

تاريخ القبول: 2024-12-26

تاريخ الإرسال: 2024-09-10

ملخص:

من خلال هذا المقال عملنا على محاولة بيان مقام موضوع المحبة عند الصوفية من خلال الرؤية التي يقدمها أهل التصوف، ولكن من المستحيل أن نناقش فيه جميع أقولهم ومواقفهم، لذلك تطرقنا لأقوال قليلة لمن كانت لهم نظريات خاصة في المحبة الإلهية، من بين الشخصيات التي خصصناها في هذا المقال رابعة العدوية أم المحبة وابن الفارض وشهيد الحب الحلاج ولا بد أن نخص بالذكر هنا الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي فالحب عنده مقام إلهي وهو سبب إيجاد العالم وأن ما في العالم إلا محب ومحبوب فالعالم كله يتنفس بالحب ويعيش به، وهو ما سنحاول تفصيله في هذا المقال. الكلمات المفتاحية: حب؛ تصوف إسلامي؛ الوجود؛ محبة الإلهية؛ ابن عربي.

Abstract:

This article endeavors to elucidate the concept of love within Sufism through the perspectives offered by Sufi scholars. However, it is impossible to address all their sayings and stances comprehensively. Therefore, we have focused on select statements from figures who developed distinctive theories on divine love. Among the personalities highlighted in this article are Rabi'a al-Adawiyya, the pioneer of divine love, Ibn al-Farid, and the martyr of love, al-Hallaj. Special mention must be made of the eminent Sheikh Muhyiddin Ibn 'Arabi, for whom love is a divine station and the cause of the world's creation. He posits that the universe consists solely of lover and beloved, with the entire cosmos breathing and existing through love. This article seeks to elaborate on these ideas in detail.

Keywords: Love; Islamic Sufism; Existence; Divine Love; Ibn 'Arabi.

* المؤلف المُرسل: hana.benacer@univ-batna.dz

1. مقدمة:

يعتبر الدين بمختلف مفاهيمه وممارساته من بين الخطابات الأساسية التي كانت ومازالت تشغل حيزا كبيرا في عملية تشكيل وتوجيه الوعي الإنساني عبر العصور وفي كل ثقافة من الثقافات البشرية، وعليه أصبح جدير بالدراسة والبحث فيه، فالمتأمل في تاريخ الأديان يجد أن الأديان أو التجربة الدينية منذ نشأتها ورغم تنوعها واختلافها، فهي تعبر عن التسامح والرحمة والسلام، فعندما نتحدث عن التجربة الدينية فهنا نميز بين نوعين:

التجربة الأولى: وهي التجربة البسيطة بحيث تتعاطى مع الدين بعقلية مغرضة نفعية بحيث يقوم المتدين بمجموعة عبادات أو طقوس إما بدافع الخوف من العذاب أو بدافع نيل الأجر والثواب للدخول إلى الجنة، أما التجربة الثانية: فهي القائمة على الحب وهي التجربة الصوفية بلغة وليام جيمس، أو كما يراها ابن عربي إنه دين الحب، وبتعبير إيريك فروم فهو الدين الإنساني، أما برتراند راسل فيرى أن التصوف تجربة مرنة تبنى على التفاؤل ومحبة الحياة.

نالت قضية المحبة عند الصوفية اهتماما على مر السنين ولا تزال تنال مثل هذا الاهتمام وقد كتبت العديد من الدراسات عن الحب الإلهي وأطلق عليه بعضهم الحب الصوفي، ظهرت نظريات هذا الحب في كتب أهل التصوف والأدب وفي أكثر الكتب التي تعالج الحب الإنساني،

صور الحب لدى الصوفية بعضهم مأخوذ من بيئتهم وعوالمهم الحقيقية وبعضها مقتبس أو منقول، وبعضها متأثر بما أشيع عن قصص المحبين، فالحب فطرة جبلت عليها جميع النفوس فهو بذرة في نفوس العباد.

وعلى ضوء ما سبق فالإشكالية المطروحة في هذا المقال هي: كيف كانت رؤية المتصوفة لإشكالية المحبة الإلهية؟ وهل كان موقف ابن عربي على أن المحبة الإلهية أساسا للوجود؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا المقال بحيث لا ندعي فيه أننا سنقوم بالإحاطة بكل الموضوع أو التطرق لكل الجوانب ولا بلوغ الكمال فيه وإنما هو محاولة للإحاطة بأهم الجوانب..

2. مفهوم التصوف الإسلامي:

من الناحية اللغوية: لفظ "تصوف" في اللغة وقع فيه اختلاف وتحديد في اشتقاق كلمة تصوف، ولذا فقد تعددت الآراء واختلفت في ذلك ومن أهم الآراء ما يلي:

الجرجاني يرى: "التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال." (الجرجاني، ع، 2004، 54) وقيل في التصوف: "هو الخروج عن كل خلق دني والدخول في كل خلق سني." وقال الجنيد: "هو أن يمتلك الحق عنك ويحييك به." وقال الشيخ القاسم الخافي: "هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا." (الأبياري، ع، 2012، 03)

أقدم مؤرخ للتصوف هو السراج الطوسي توفي عام 378 هـ في كتابه اللمع في باب الكشف عن الصوفية ولما سموا بهذا الاسم فيقول أن الصوفية نسبة للبسم الصوف، أيضا الكلاباذي هو الآخر تحدث عن التصوف في كتاب "التعرف لمذهب أهل التصوف" ويرى أن الباحثين قد اختلفوا في تفسير التصوف طائفة، يقول أنهم سمو صوفية لصفاء أسرارهم ونقاء أثارهم، وقال بشر بن الحارث: "الصوفي هو من صفا قلبه لله. (القشيري، أ، 1989، 464) وذهب آخرون "إنما سمو صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم." (النشار، س، 2018، 27)

وقال أيضا حسن البصري: "لقد أدركت سبعين بدريا ما كان لباسهم إلا الصوف، فلما كانت هذه الطائفة بصفة أهل الصفة فيما ذكرنا ولبسهم وزيمهم زي أهلها سمو صفية وصوفية." (ظهير، إ، 1986، 22) فهناك من يرجع أصل التصوف نسبة للبسم الصوف، جميع ما سبق ذكرنا أن كلمة التصوف هي اسم مشتق إلا أن القشيري يرى "أنه لا يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر أنه كاللقب." (القشيري، أ، 1989، 464)

ويقول أبو يزيد البسطامي: "توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري ومعرفته سبقت معرفتي ومحبهه أقدم من محبتي وطلبه لي أولا حتى طلبته." (القشيري، أ، 1989، 189)

هي معاني من مختلف وجهات نظر تفيد أن التصوف هو الإخلاص بالعبادة لله وحدة والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فما يقبل عليه عامة الناس من مال وجاه ولذة والانفراد للعبادة فقط.

من الناحية الاصطلاحية: كما اختلفت الآراء في معنى التصوف لغة اختلفت وتباينت وتعددت من الناحية الاصطلاحية، فهناك من يرى أن التصوف هو طريقة سلوكية قوامها التقشف والزهد والتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح، وهو حالة نفسية يشعر فيها المرء بأنه على اتصال بالمبدأ الأعلى.

وقيل في التصوف: "أول التصوف علم وأوسطه عمل وآخره موهبة، فالعلم للكشف عن المراد والعمل للعون على المطالب والموهبة للتبليغ إلى غاية الأمل." (الأبياري، ع، 2012، 04) وفي نفس الصدد يقول أبو القاسم الجندي يرى أن التصوف "هو أن يملك الحق عنك ويحييك به." وقال: "هو أن تكون مع الله بلا علاقة." (رحيم الدين، أ، 2009، 21) وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه "التصوف تدريب النفس على العبودية وردّها لأحكام الربوبية." (رحيم الدين، أ، 2009، 21) وهذا إن دل على شيء إنما يدل أن التصوف إذن هو إصلاح للقلوب وملازمة العبادة وتصفية الأخلاق والزهد في الدنيا والالتفاتة للآخرة والاجتهاد في طاعة الله، كلها تسمى بعلم المعاملة في سلوك الطريق إلى الله.

وجدير بالذكر أن الصوفي المسلم: "هو كل مقرب من حضرة الله ورسوله حيث استضاءت قلوبهم بالأنوار الإلهية وانشرحت صدورهم بالحقيقة المحمدية." (زكي، ح، 2001، 29) فالصوفي هو من يمتلك صفاء القلب وطهارة النفس، والصوفية هم صفوة عباد الله بحيث تعلمو وعلمو وتركوا نفوسهم فاتضحت لهم صور الأشياء على حقيقتها، ويعمل الصوفي على تصفية القلب من شوائب النفس وتكون روحه منجذبه للروح الإلهية.

واستخلاصا لما سبق فالتصوف يعمل على تنظيم سلوك الإنسان ويرسم له طريقا خاصا في الحياة، مراحل العبادة والذكر والمجاهدة ومعرفة الله ونهايته الوصول إلى الله تعالى ومرضاته، إذن واستنادا على ما سبق هو منهج روحي الغاية منه تطهير النفوس وإصلاحها وتربيتها للارتقاء بها نحو أعلى الدرجات من الطاعة والعبادة ولا بد من أخذ

التصوف من منابعه لا عن طريق المغالطين، والتصوف الإسلامي هو الإخلاص بالعبودية لله تعالى وحده.

3. في مفهوم الحب والمحبة:

من الناحية اللغوية: يعتبر الحب من أكثر المفاهيم الإنسانية استخداماً وشيوعاً فهو من ناحية اللغوية: نقيض البغض وهو "الوداد والمحبة، والحب من حب." (منظور، إ 1988، 2009) ويقال: "حب الشيء إليه جعله يحبه، وتجمع على أحباء وأحبة وهي حبيبة." (ابراهيم، م، 1989، 66) وحب الشيء أي ارتفع أعلى وقيل الحب ما يعلو الماء عند المطر الشديد.

وبناء على ما سبق التعريف به سابقاً نصل أن الحب هو علاقة ودية بين الأنا والآخر، كما يحث الله تعالى على هذه الصفة ويقول سبحانه في كتابه العزيز: ﴿ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ (الحجرات، الآية 127)

كما نجدتها في المعاجم الأجنبية في قاموس الفرنسي LAROUSSE تعني أن يكون لديك شيء من المودة أو الحنان أو الصداقة أو العاطفة تجاه شيء ما، وهي مرادفة لأعشق شيء أعتر بشيء ما، وهي ضد البغض والكراهية (GENOUVRIER, E & HORDE, C, 1977, p. 40).

أما في قاموس أكسفورد الإنجليزي oxford فكلمة حب تعني الإعجاب والإهتمام أي شعور قوي جداً بالإعجاب والاهتمام بشخص أو شيء ما (BURCHFIELD, R, 1989, p. 726).

لا يفوتنا تعريف ابن القيم للمحبة: "وقد قيل في المحبة حدود أكثر من هذا وكل هذا تنعت ولا توصف المحبة ولا تحد بحد أوضح من المحبة ولا أقرب إلى الفهم من لفظها." (المرزوقي، ع، د.س، 108) فالمحبة حسب ابن القيم لا تحتاج لتعريف فهي إذن أكبر من أن يحدها لفظ، فليست هي اسماً كمسمائها ولا لفظها بيّن لمعناها وهذا الاختلاف الشديد في بيان معنى المحبة راجع لأنها من الأمور الوجدانية التي لا ترى بالأبصار.

وبناء على ما سبق فالحب الغرض منه إرضاء الحاجات المادية والروحية، وهو مترتب على تخيل كمال في الشيء السار أو النافع الذي يؤدي إلى انجذاب الإرادة كمحبة العاشق لمعشوقه، والوالد لولده والصديق لصديقه، ومن ناحية هو الود وضد البغض والكراهية.

من الناحية الاصطلاحية: تعددت المرجعيات التي يتحدد في ضوءها مفهوم الحب من الناحية الاصطلاحية فالحب أعظم عامل في الحياة وأعظم قوة في قلب الإنسان تسوقه إلى أعمال رفيعة، فهو ملك يتصدر عرش العواطف والأحاسيس وينطلق من حالات خاصة في الروح، فمن الناحية السيكلوجية "الحب ليس مهارة خاصة ولا حاجة إلى التعليم وإنما هو نزوع فطري، ونقص بهذا الأخير هو ذلك الاستعداد الخاص للروح كي تكون قادرة على معرفة الحب حين تلتقي بالمحبوب... لذلك فالمحبوب هو النصف المكمل لنا والذي حين نلتقي به تكتمل الصورة، فيتحقق المعنى بالكامل والشعور بالتكامل". (صادق، ع، 1992، 38)

أهم سمة للحب هنا هو الإخلاص الذي يعتبر مؤهلاً للحب ولذلك فهو الطريق العظيم للترقي والصعود والسمو، فإذا قلنا أن صميم الحب هو الإخلاص فإن هذا الإخلاص يولد قيمة عظيمة أخرى كالوفاء والمسؤولية والرعاية والعطاء والنزاهة... وهو التجسيد الحقيقي للضمير الإنساني ووسيلته إلى عالم الخير والجمال والحق.

والمحبة حسب لالاند: "في لغة علم اللاهوت تدل هذه الكلمة على أعظم الفضائل اللاهوتية، وتكمن هذه الفضيلة في حب الله ذاته وحب القريب حباً بالله، بعد ذلك ارتدت الكلمة طابعاً دينياً يميزها من كل شكل للإحسان المحض أو البر الخالص". (لالاند، أ، 2001، 168)

أما من الناحية الدينية فأهل السنة يثبتون محبة الله تعالى ورضاه لعبده وأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد ويحب لذاته، ويفرح بتوبة التائبين ويحب ويرضى عن عبادة المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ البقرة 222 ويقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة 195

وتماشياً مع ما تم ذكره فإن محبة الله لعبده متعلقة بأداء الفرائض وبالتقرب إليه بالنوافل، وحب الله لعبده لا يقدر على قيمته إلا من عرف الله وعرف عظمته وقدراته، عندما نتحدث عن محبة الله لعبده فلا بد أن نذكر محبة العبد لربه، وهي من أعظم واجبات الإيمان بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان ولوازمه، وقد ذكر في القرآن محبة العبد لربه يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ البقرة 165 وعليه فالحب في العقيدة الإسلامية صفة لازمة تنبثق من الإيمان، لهذا كانت المحبة عقيدة قوية راسخة ذات ركائز روحية وإنسانية.

وجدنا أيضا في الموسوعات والمعاجم الفلسفية أنه غالبا ما يربط مصطلح الحب أو المحبة بالجانب الصوفي أو اللاهوتي، وفي هذا الإطار نجد جميل صليبا مثالا يرى أن: "المحبة في الفضائل الدينية والأخلاقية أن تحب الله لذاته، ولهذا فالمحبة الدينية صفة تميزها عن كل ما عداها لأنها مضافة إلى حب الله فلولا حبك لله تعالى، لما أحببت قريبك كما تحب نفسك." (صليبا، ج، 1982، 332)

ومن زاوية أخرى الحب في الاصطلاح الصوفي: "ميل دائم بقلب هائم، ويظهر هذا الميل أولا على الجوارح الظاهرة بالخدمة وهو مقام الأبرار، وثانيا على القلوب الشائقة بالتصفية والتجلية وهو مقام المريدين السالكين، وثالثا على الأرواح والأسرار الصافية بالتمكين من الشهود المحبوب وهو مقام العارفين." (احمد، ع، دس، 32)

سئل ذو النون المصري رحمه الله عن المحبة فقال: "أن تحب ما أحب الله وتبغض ما ابغض الله وتفعل الخير كله وترفض كل ما يشغل عن الله، وأن لا تخاف في الله لومة لائم مع العطف على المؤمنين والغلطة على الكافرين واتباع رسول الله في الدين." (عيسى، ع، 2008، 336) وتفسيرا لما سبق فالإيمان الصوفي لم يكن إيمان صفقة بين العابد والمعبود، أي إيمان مشروط يلتزم به العابد رغبة في الثواب وخوفا من النار أو العقاب، إنما هو إيمان مجرد من الخوف والرجاء متمحض لحب الذات الإلهية والشوق للقاءها، فالصوفي لا يهتم بشؤون الجنة والنار، وإنما يهتم بطاعة وعبادة الله تعالى والإخلاص له.

فرق الصوفية بين حب الإنسان لله وحب الله للإنسان "أما محبة العبد لله فحالة تلطف عن العبارة تحمل الإنسان على التعظيم له وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه والاحتياج إليه وعدم القرار من دونه، ولا تتضمن محبة الإنسان لله ميلا ولا اختطاط لتقديس حقيقة الصمدية عن اللاهوت والدرك والإحاطة، فهي لا توصف بوصف ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبة." (جوده، ن، 1982، 252) للمحبة عند الصوفية درجات يترقى فيها المريد من الشوق إلى المعبود، في مرحلة أولى إلى الحب المتبادل بين الله والعبد استنادا إلى قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ سورة المائدة الآية 54 أما محبة الله للإنسان إرادة الله أن يخص الإنسان بالقربة والأحوال العلية.

وهي إرادة واحدة تختلف أسماؤها بحسب متعلقاتها، فإذا تعلقت بالعقوبة سميت غضبا وإذا تعلقت بعموم النعمة سميت رحمة وإذا تعلقت بخصوصها سميت محبة." (جوده، ن، 1982، 352)

وكخلاصة لما سبق فإن محبة الله لعبده تتجلى فيما يفيضه عليه من نعمه ومنه ومن عطايا وهبات يسمونها العبد عن وضعه البشري، وتلي تلك الدرجة في المحبة درجة ثانية ينشر فيها الصوفي المحبة الإلهية بين العباد ويعلمهم كيف يتحابون في الله ويتأخون في مراعاة حدوده فيحب بعضهم بعضا وتسود المحبة بينهم.

4. ماهية الحب في التجربة الصوفية:

ظهر في التصوف الإسلامي نزعتان تتمثل النزعة الأولى في الصوفي الزاهد الذي يرى بأن الله هو الكائن القهار القوي وأن كل ما علينا فعله هو الطاعة لله تعالى وهي علاقة قائمة على الطاعة بسبب الخوف من الله فقط، أما النزعة الثانية فقد غلب على نزعتهم الصوفية طابع المحبة، ويرى أن العالم ما هو إلا انعكاس للجمال الإلهي وصورة يتجلى بها الحب الإلهي، في مقابل ذلك يرى البعض من الصوفية أن الحب الإلهي هو سبب خلق الله لهذا الوجود، فهذا الوجود عبارة عن تجلي لصفاته تعالى.

المحبة من أرقى المذاقات الصوفية وأسمى العواطف الإنسانية والروحية يقول نيكلسون: "في التصوف الإسلامي يجتمع الحب الإنساني بالحب الإلهي." (نيكلسون، ر، 2002، 114) نالت النظرية اهتمام الباحثين ولا تزال تنال مثل هذا الاهتمام أكثر مما نالته نظرية الحب الإنساني، وقد كتبت العديد من الدراسات الجادة عن الحب الإلهي وأطلق عليه بعضهم "الحب الصوفي" وظهرت نظريات هذا الحب في كتب أهل التصوف والأدب وفي أكثر الكتب التي تعالج الحب الإنساني، منها دواوين الشعر وكتب الفقهاء والتي جمع فيها أشعار وأقوال تدور حول الحب الإنساني في جميع حالاته.

يذكر الدكتور محمود محمدي زقزوق في الموسوعة الإسلامية العامة أن مصطلح الحب الإلهي ظهر في القرن الثاني الهجري وكانت الحياة آن ذاك يحركها عامل الخوف من الله ومن عقابه، وكان من أبرز هذا الاتجاه الحسن البصري لقد اشتغل بالحب الإلهي طائفة من المتصوفة على مر العصور نذكر أربعة العدوية، ذو النون المصري، أبو يزيد البسطامي، الغزالي ومحي الدين ابن عربي... كثيرون هم شعراء الصوفية لكن سنأخذ عينة ممن تغنى الصوفية بشعره في مجالسهم فطربولها وامتزجوا بمعانيها.

في هذا المقام لا يفوتنا موقف الإمام الغزالي عن الحب الإلهي يقول: "إذا قيل لك أحب الله ورسوله... فاسكت فإنك إن قلت لا أخطأت خطأ كبيراً، وإن قلت نعم فسيسألك الأولياء عن الدليل". (عبد الله، ع، د.س، 387) يرى الغزالي أن الحب الإلهي هو الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات، فقد فسر الحب الإلهي بأنه حالة من الحب الشديد يشترك فيها المحب للقاء الله سبحانه وتعالى.

أول من نسب إليه هذا المذهب هي رابعة العدوية 135هـ التي مرت في سلوكها الصوفي بثلاث مراحل وهي: مرحلة الاستغراق في التوبة والاستغفار، مرحلة الحب الإلهي، ومرحلة الحب الإلهي الخالص وهي المرحلة التي بلغت فيها مقام الرضا.

محبة رابعة محبة من نوع خاص فهي محبة معنوية وليست حسية، فرابعة لا تحب الله من أجل ثواب الجنة ومخافة عقاب النار ولا تحبه لإحسانه وتفضله عليها، ولكنها تحبه لذلك وأكثر تقول: "اللهم إن كنت أعبدك خوفاً من النار فاحرقني بها، أو طمعا في الجنة فحرمها علي، وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمني من مشاهدة وجهك". (السويسبي، ص، 2018، 329) فمحبتها لله تدق على الفهم ولا يصل إليها الفكر وليس لها من تعليل سوى أنها من تأثير التعارف الذي جعله الله تعالى بين القلوب ولا يعلمه سواه لذلك تقول:

فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا (الحفنى، ع، 2012،

(143)

فالعشق الصوفي الإلهي عند رابعة هو اتحاد عقلي يوجب غفلة المحب عند الشعور بجملته شغلا منه بشهود محبوبه، وذلك تفسير أبيات رابعة:

أحبك حبين حب الهوى وحباً لأن كاهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى فذكر شغلت بيه عن سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا (الحفنى، ع، 2012،

(144)

ولا يفوتنا ذكر موقف شرف الدين بن الفارض (588هـ-633هـ) ولد بالقاهرة كان ميالاً للعزلة والزهد فسلك طريق الصوفية، كان الجمال يستهوي ابن الفارض في كل شيء لقد سعي سلطان العاشقين لأنه عشق مطلق الجمال، فكانت غزلياته وخمرياته تملأ الأسماع واشتهر في الأدب العربي والصوفي بلقب "سلطان العاشقين" حتى أن الكثير

من الباحثين رأوا بأن ابن الفارض هو شاعر "الأنا الجمعي" الذي يجد حقيقة ذاته في الاندماج التام مع الحقيقة العليا المسماة في الاصطلاح الصوفي "بالنور المحمدي" أو "الحقيقة المحمدية" أو "الإنسان الكامل". يقول:

ما بال نفسي تطيل شكواها إلى الورى وهي ترتجي الله

لو أنها من مليكها اقتربت وأخلصت ودها لأدناها

أفقرها للورى ولولجأ إليه من دونهم لأغناها (عبد الله، ع، د.س.388)

فليس وصف الحب والجمال في شعر ابن الفارض إلا جزء محدود ومرحلة عابرة في سفره الصوفي، الذي يهدف إلى أفاق أوسع ألا وهو "بحار الجمع" أي تلك الحقيقة النورانية العليا التي هي مصدر الكل ومرجع الكل، ويقول:

فني الحب! ها قد بنت عنه بحكم من يراه حجابا فالهوى دون رتبتي

وجاوزت حد العشق فالحب كالقل وعن شأو معراج اتحادي رحلي

(سكاتولين، ج، 2012، 407)

فهو الشاعر الصوفي الذي وصل إلى الفناء التام في الذات العلية حتى صارت الموجودات منعدمة تماما فيما عدا ربه، فكل استعارة مرشحة بمفردات الحب والجمال والغزل والهيام على يديه اشتهر الشعر الصوفي وقد كون تيارا في الشعر الإلهي.

لابد أن نتحدث على شخصية أخرى ومهمة وهو أبو عبد الله المغيث الحسين بن منصور الحلاج (858 - 922 هـ) ولد بالعراق، مفتاح شخصية الحلاج هو حبه الإلهي فهو سمته وطابعه، وهو الذي شكل ملامحه الروحية وكون معارفه الذوقية وهو معراجة الذي صعد عليه مستهدفا الوصول إلى الفناء في المحبوب الأسى فناء يمنحه الخلود والبقاء، فالحب الإلهي حسبه هو المصدر الحقيقي الذي استمدت منه الموجودات وجودها وهو سبيل المعرفة العليا فإذا فنيت النفس عن أوصافها بالحب انكشفت لها السرار ورفعت عنها الأستار.

يقول نيكلسون: "لقد نمت على يد الحلاج أكبر حركة تطور في تاريخ التصوف فهو المبتكر الأول للمصطلحات الصوفية التي وسعت أفاق التصوف، وهو من جعل من الحب الإلهي فلسفة كاملة ومنهجاً متماسكا وأن كل من جاء بعده إنما كان ينسج ويقلد." (سكاتولين، ج، 2012، 108)

لقد استهدف الحلاج بحبه الفناء الكامل ليخرج من بشرية صفاته إلى بهاء التحلي بأوصاف المقدس الأعلى، منهج الحلاج في الحب هو العذاب لا اللذة هو التضحية الكاملة بالنفس وهذه التضحية هي أسى درجات الحب، يبدو أن وصف "أنا ماري شيمل" حول الحب، قد لخصته في وصفها عندما قالت عنه انه شهيد الحب الصوفي.

وعليه فإن التجربة الصوفية هي تجربة انفتاح وتحرر ومحبة إنه دين الحب الذي يتخطى الأخلاق المغلقة، فالتجربة الصوفية ليست بالتجربة المغلقة ولا تفرض قيود كالتي تفرضها طقوس بعض الأديان الاجتماعية، فهي ليست بالتجربة الجامدة وإنما تعرف على أنها التجربة المنفتحة، فالتجربة الصوفية هي تجربة حب واتصال بالإله من جهة وبالبشر والإنسانية من جهة أخرى، لذلك قيل: "في التصوف الإسلامي يجتمع الحب الإنساني بالحب الإلهي". (الألوسي، ع، 1999، 13)

الحب الصوفي أكثر رفعة وسمو عن الحب الحسي لأنه حب نفسي يقع في موقع القلب مصدر كل العواطف السامية، والحب الإلهي هو أساس الحب وهي الطريقة للوصول إلى الله تعالى ولا طريق للوصول لله تعالى ومحبه سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله

5. الحب الإلهي عند ابن عربي:

من شعراء الحب الإلهي محي الدين ابن عربي هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي من ولد عبد الله بن حاتم أخ عدي بن حاتم يكنى أبا بكر ويلقب بمحيي الدين ويعرف بالحاتمي، ولد في مرسية من بلاد الأندلس في أواخر رمضان سنة 560هـ ثم انتقل من مرسية إلى اشبيلة سنة 567 فأقام بها إلى سنة 597 ثم انتقل إلى المشرق حاجا ولم يعد بعدها إلى الأندلس، ودخل إلى مصر وأقام بالحجاز مدة ودخل بغداد الموصل وبلاد الروم وتوفي بدمشق ليلة الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة 637.

نظرية ابن عربي في الحب الإلهي متفرعة عن مذهبه القائل بوحدة الوجود فهي من لوازم هذا المذهب بل نتيجة من نتائجه، وهي نظرية تقول أن الوجود في حقيقته جوهر واحد والوجود ما هو إلا تجلي لصورة الإله، وعليه يرى ابن عربي أن المحبة الإلهية سبب في الخلق والعامل الأول في هذا الوجود.

تنطوي وجهة نظر ابن عربي أن الحب هو سبب إيجاد العالم، فالعالم بالحب خلق وبالحب يعيش وما في الموجودات إلا محب ومحبوب، ويرى في ذلك أن للحب سببان الجمال وهو في علاه لله والإحسان، وما ثم الإحسان إلا منه فإن أحببت للإحسان فما أحببت في الحقيقة إلا الله فإنه الجميل نور السموات والأرض ويقول: "ما في الوجود إلا محب ومحبوب لكن من شأن المحبوب أن يكون معدوماً" (عربي، الفتوحات المكية، 1999، صفحة 497) من أوصاف المحبة الحقّة أن يجمع المحب في حبه بين الضدين ويقول في ذلك أيضاً "إن الحب تعلق خاص من تعلقات الإرادة فلا تتعلق المحبة إلا بمعدوم غير موجود." (ابن عربي، م، 1999، 490)

فالرؤية الخاصة بابن عربي في هذه المسألة أن هذا الحب يحكمه روابط وشروط، فيطلب إلى المحب أن لا يستمع إلا لكلام محبوبه، ويغض بصره عن كل منظور سوى وجه محبوبه، ويخرس لسانه عن كل كلام إلا عن ذكر محبوبه فيه يسمع ويبصر ويتكلم.

ولمقام المحبة عند الشيخ الأكبر أربع مقامات: أولها الهوى وهو استفراغ الإرادة في المحبوب والتعلق به الهوى وهو سقوط الحب في القلب في أول نشأة في قلب المحب لا غير وهو أول ما يحصل في القلب ويقول:

ما للهوى أخذ الهوى بدمي تحكم الحب في روحي وفي بدني
ما حل للحب أن الحب أعدمني صبري وحرمت أجفاني عن الوسن (ابن عربي، م، 1998، 42)

وثانيها الحب وعلامته ألا يكون للمحب غرض أو إرادة مع محبوبه الحب وهو خلوص الهوى إلى القلب وصفائه، فلا غرض لمحب ولا إرادة مع محبوبه الحب قريب من المحب لقيامه به وقريب من المحبوب لتعلقه به ومن عرف الحب عرف كيف يحب، فقد كان الشيخ أبو العباس العربي يدعو الله أن يرزقه شهوة الحب لا الحب وذلك أن قرب الحبيب من المحب.

وثالثها العشق وهو المحبة المفرطة وهو أن يقع المحبوب في حالة من العشق، وهو الذي يوقد نار الشوق والوجد في القلب العاشق عند الاجتماع بالمحبوب لا يشبع من مشاهدته لأنه كلما نظر إليه زاد وجداً به وشوقاً مع حضوره معه، فالعاشق إن راح المعشوق لم يرح عن خياله. متى يسمى الحب عشقاً؟ إذا ظهر الحب في حبة القلب وعم

الإنسان في جملة وأعماه عن كل شيء سوى محبوبه، وسرت تلك الحقيقة في جميع أجزاء بدنه وقواه وروحه وجرت في مجرى الدم في عروقه وغمرت جميع أجزائه جسما وروحا ولم يبق فيه متسع لغيره وصار نطقه به وسماعه ونظره في كل شيء، إلا يقول هو هذا حينئذ سعي ذلك الحب عشقا.

ورابعها الود وهو من اسمه تعالى الودود ومن علامته أن يتودد الحب للمحبوب دائما بما يرضيه ويحبه وله إسم إلهي الودود والود ثبات الحب أو العشق أو الهوى والمحب هنا هو فعال لما يريد المحبوب لأن المحبوب فعال لما يريد محبوبه لأنه المحب الودود أي الثابت على لوازم المحبة وشروطها والودود هنا هو الفعال لما يريد.

لقد أفرد الشيخ الأكبر كتاب تحت عنوان لوازم الحب الإلهي وضع فيه شذرات من لوازم الحب الخالص فوضع له شروطه ولوازمه، كالوجد والشوق واليهام الاستلطاف والاستعطاف الأدب والصبر وغيرها، وفي المقابل فإن المحبة المفرطة تورث الانكسار والنحول والتفكير الزائد والهم اللازم.

محي الدين ابن عربي يرى أن الله هو الذي بدأ بالمحبة لنا تفضلا منه وخلقنا، وهو تعالى لا يخلق إلا ما يحب، ومن حبه لنا بعث لنا رسل لتعلمنا الأعمال التي تؤدي إلى سعادتنا، الحب الإلهي هو أسمى ما في عالم المعاني ولهذا يستغرق الطاقة كلها، فنحن ما خلقنا إلا للعبادة والطاعة والمحبة فحب الله روح العبادة وهو رجوع بالنفس إلى الفطرة.

الحب حسب ابن عربي ثلاث مراتب إلهي روحاني وطبيعي، بحيث يقول في هذا السياق "أحببت ذاتي حب الواحد والثاني والحب منه طبيعي وروحاني والحب منه إلهي أمتلك به ألفاظ نور هدى في نص قرآن." (ابن عربي، م، 1999، 481) الحب الإلهي هو حب الله لنا وحب الله أيضا وهو أن يحبنا لنا ولنفسه فما خلقنا إلا لنفسه، أما حبه لنا فعرفنا به من خلال الأعمال التي تؤدي إلى سعادتنا ونجاتنا من الأمور التي لا توافق أغراضنا ولا تلائم طباعنا، فمن حبه تعالى لنا وعرفنا بمصالحنا في الدنيا والآخرة ورزقنا وأنعم علينا كل نعمة خلقها فهي لنا لتنعيم بها، ومن إحسانه أنه بعث لنا أنبياء ورسلا لمهدينا وحذرنا من الأخلاق الذميمة وكره لنا الفسوق والعصيان، فلولا ما أحبنا الله ما كان شيء من كل هذا فرحمته تعالى سبقت غضبه يقول الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

سورة المائدة 54

نسبة الحب إلينا ما هو نسبة الحب إليه والحب المنسوب إلينا ينقسم إلى قسمين: الحب الروحاني والحب الطبيعي وحبنا لله بالحبين معا ويقول ابن عربي في حبنا لله تعالى "...منا من يحبه لنفسه ومنا من يحبه للمجموع وهو أتم في المعرفة بالله والشهود... ومنا من عرفه في النعم فأحبه." الحب الطبيعي فيه نوع من المصلحة الخاصة بالمحب لمحبيه، لا يحبه لأجل ذاته وإنما من أجل العطايا والنعم التي أنعمها عليه.

أما الحب الروحاني وهو الحب الجامع في المحب أن يحب محبوه، لمحبيه ولنفسه والغاية منه الاتحاد وهو أن تصير ذات المحبوب عين ذات المحب وذات المحب هي ذات المحبوب. (ابن عربي، م، 1999، 500) وهو ما تشير إليه الحلولية فالمحبيب لابد له بطبيعة الأمر من صورة له في الواقع أو صورة طبيعية تمثل مقامه، فله ضرب من ضروب الوجود فإذا تعانقا الحبيبين صار الاتحاد كما يقول: "روحا بروح وجثمان بجثمان." (عربي، م، 1999، 500) الحب الروحاني هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان وهو يختلف عن الحب الطبيعي، إذ يهتم الحب الطبيعي بسعي المحب إلى إرضاء النفس، بينما الحب الروحاني هو الذي يتطلب من المحب إرضاء محبوه فهو ثمرة وأعلى درجات السمو والروحانية ويعمل فيه المحب لمرضاة محبوه.

لقد كان ابن عربي من اللذين نسبت إليهم نظرية الاتحاد والحلول، وقد بلغ تصويره لاتحاده بالإله بحيث جعل صورة الإنسان صورة للإله وأنه خلق على هيئته، وقال أن هذه الصورة تتكون من طبيعتين الأولى ناسوتية أي بشرية والثانية لاهوتية، وقد امتزجت هاتان الطبيعتان لدرجة يصعب الفصل بينهما، وهنا تكمن نظريته في الحلول وجوهرها وهي التي ترجمتها عبارته الشهيرة أنا الحق، الحب الروحاني غايته التشبه بالمحبيب هو الحب الجامع في المحب أن يحب محبوه لمحبيه ولنفسه.

واستخلاصا لما سبق فالغاية من الحب الروحاني هو الاتحاد أي أن تصير ذات المحبوب عين ذات المحب وذات المحب عين ذات المحبوب وهو الذي تشير له الحلولية، أما الحب الطبيعي أن يحب المحبوب لما له من نعيم ولذة ومنافع فهو حب العوام ولا يكون الحب الطبيعي إلا إذا كان المحب من عالم الطبيعة وذلك أن الحب الطبيعي سببه نظرة أو سماع.

6. الخاتمة:

وعليه في الختام نصل إلى أن التصوف اهتم بمسألة المحبة في تحقيق السلام الداخلي والخارجي، في هذه الدراسة حاولنا أن نبين المظهر الوجداني في التصوف أي المحبة أو الحب الإلهي وهو أقصى درجات المحبة وأكثر ما نادى به المتصوفة، فأول من نسب له هذا المذهب هي رابعة العدوية، وشهيد الحب الحلاج، إضافة إلى محي الدين ابن عربي، وغيرها من النماذج التي تظهر لنا قيمة التصوف الدينية التي تقودنا نحو السلم وأقصى معالم الحب.

محبة الله هي الغاية القصوى ومن المقامات والذروة العليا من الدرجات عند الصوفية، بحيث جردو الحب عن المطامع والشهوات واخلصو الحب لله تعالى، فليس في حبه علة ولا لعشيقهم دواء إلا رضى مولاهم، الحب الإلهي المجرد عن الماديات من أجمل الأخلاق التي يتخلق بها الصوفية ويعتمدون عليها في منهاج دعواهم.

الحب في منطق الصوفية هو أسى العبادات وأزكاها وهو معراج المعرفة وبراق القرب، لقد عرف الصوفية طريق الحب المنزه عن المادية فانتهجوا سبيله وساروا في دربه لأنهم تيقنوا أن الحب هو أصل طرق الوصول إلى الله تعالى والوصول إلى معرفته، فلولا الحب ما عرف الله.

نظرية الحب الإلهي عرفت عند الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي فيرى أن كل مظاهر الحب المنسوبة للإنسان هي من أصل المحبة الإلهية، ويرى أن الله هو الذي بدأ بالمحبة لنا تفضلا منه وخلقنا وهو تعالى لا يخلق إلا ما يحب، وفي هذا الكون لا يوجد إلا محب ومحبوب وللحب عنده أربع مقامات الهوى الحب الود والعشق.

للحب عند ابن عربي ثلاث مراتب طبيعي وروحاني وإلهي والحب الطبيعي أن يحب المحبوب لما له من نعيم ولذة ومنافع فهو حب العوام، والحب الروحاني هو الحب الجامع في المحب أن يحب محبوبه لمحبهه ولنفسه، الغاية منه الاتحاد فتكون روح كل منهما روحا لصاحبه، الحب الإلهي هو حب الله لنا وحب الله أيضا وهو أن يحبنا لنا ولنفسه فما خلقنا إلا لنفسه أما حبه لنا فعرفنا به من خلال الأعمال التي تؤدي إلى سعادتنا ونجاتنا.

المصادر والمراجع:

أولا المراجع باللغة العربية:

1. محي الدين ابن عربي. (1998). لوازم الحب الإلهي. سوريا: دار معد للطباعة والنشر والتوزيع.
2. محي الدين ابن عربي. (1999). الفتوحات المكية. سوريا: دار معد للطباعة والنشر والتوزيع.
3. ابن منظور. (1988). لسان العرب. بيروت: دار الجيل.
4. أبو القاسم القشيري. (1989). الرسالة القشيرية. تأليف ا. القاهرة: مؤسسة دار الشعب.
5. أبو محمد رحم الدين. (2009). التصوف الذي تريده. القاهرة: مكتبة أم القرى.
6. إحسان إلهي ظهير. (1986). التصوف المنشأ والمصادر. باكستان: إدارة ترجان.
7. العلامة الشيخ عبد الهادي نجا الأياري. (2012). في التصوف. الجزائر: منشورات الجزائر للكتاب.
8. اندريه لالاند. (2001). موسوعة لالاند الفلسفية. باريس: منشورات عويدات.
9. جميل صليبا. (1982). المعجم الفلسفي. لبنان: دار الكتاب اللبناني.
10. جوزيبي سكاتولين. (2012). تأملات في التصوف والحوار الديني من أجل ثورة روحية متجددة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
11. د حسن عباس زكي. (2001). مذاقات في عالم التصوف. القاهرة: مركز الكتاب للنشر.
12. رحيم أبورغيف الموسوي. (2013). الدليل الشامل الفلسفي. عين البيضاء: دار المحجة.
13. صابر السويسي. (2018). التصوف والعنف. بيروت: مؤمنون بلا حدود.
14. عادل صادق. (1992). تأليف معنى الحب. القاهرة: كنوز من المعرفة.
15. عادل كمال الألويسي. (1999). الحب والتصوف عند العرب. لبنان: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.
16. عبد القادر عيسى. (2008). حقائق عن التصوف. سوريا: دار العرفان.
17. عبد الله احمد. (سنة النشر غير معروفة). معراج التشوف إلى حقائق التصوف. دار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي.
18. عبد المنعم الحفني. (2012). الموسوعة الفلسفية العربية. القاهرة: مكتبة مدبولي.
19. علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني. (2004). معجم التعريفات. القاهرة: دار الفضيلة.
20. علي بن يحيى المرزوقي. (سنة النشر غير معروفة). تأليف مفهوم الحب عند أهل السنة والجماعة (صفحة 08). دار الصمعي للكتابات الإسلامية.
21. علي سامي النشار. (2018). نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. القاهرة: دار المعارف.
22. عيد إبراهيم عبد الله. (سنة النشر غير معروفة). الصوفية دين الحب. القاهرة: مؤسسة إيداع للترجمة والنشر والتوزيع.
23. مذكور ابراهيم. (1989). المعجم الفلسفي. مصر: الهيئة العمومية للمطابع الأميرية.
24. نصر عاطف جوده. (1982). شعر عمر ابن القارض. بيروت: دار الأندلس.
25. ريتولد نيكلسون. (2002). الصوفية في الإسلام. القاهرة: الشركة الدولية للطباعة.

ثانيا المراجع باللغة الأجنبية:

1. EMILE GENOUVRIER & CLAUDE DESIRAT TRISTAN HORDE. (1977). LAROUSSE SYNONYMES. PARIS: LIBRAIRIE LAROUSSE.
2. R. W. BURCHFIELD. (1989). the oxford english dictionary. OXFORD: CLARENDON PRESS.